2

أسس النظام الإداري في عهد «محمد علي»

في إدارته لشئون البلاد.. كان «محمد علي» يتعامل مع مصر باعتبارها أملاكه الخاصة.. وكما سيحكى لنا التاريخ فيما بعد رسوخ هذا المنطق في سلالته من بعده والذي تجسد في الواقعة الشهيرة[1] بين «الخديوي[2]» إسماعيل» والزعيم الشعبي «أحمد عرابي» والتي قال إسماعيل فيها لعرابي: «أنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي.. وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا»..

ونعود لمحمد علي لنقول أنه ربما كان أكبر دليل على نظرته تلك لمصر هو هذا المرسوم الذي أصدره ذات يومٍ لأحد حكام الأقاليم جاء فيه ما نصه:

«البلاد الحاصل فيها تأخير في دفع ما عليها من البقايا أو الأموال يُضبط مشايخها ويرسلون للومان «السجن» والتنبيه على النُظار بذلك.. وليكن معلوماً لكم ولهم أن مالي لا يضيع منه شيء بل آخذه من عيونهم».

ونرجع لبداية حكم «محمد علي» عندما استطاع القضاء على المماليك.. كان يخاف عودتهم.. بعد أن تشرذموا في مختلف أقاليم مصر.. لذلك منذ البدايات الأولى لاستقراره في الحكم عمل على ربط القاهرة بالأقاليم إدارياً بشكل قوى.. حتى يستطيع تتبع أثار من تبقى من المماليك في مصر.

ومن أجل إحكام قبضته على ذلك كله وضع سياسة تصنيعية وزراعية موسعة.. وضبط المعاملات المالية والتجارية والإدارية والزراعية لأول مرة في تاريخ مصر.. وكان جهاز الإدارة أيام «محمد علي» يهتم أولاً بالسُخرة وتحصيل الأموال الأميرية وتعقب المتهربين من الضرائب.. وإلحاق العقاب الرادع بهم.. وكانت

(١) إلا أن عرابي رد عليه قائلاً: قال: «لقد خلقنا الله أحرارًا.. ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا.. فو الله الذي لا إله إلا هو أننا سوف لا نُورَث.. ولا نُستعبَد بعد اليوم..» وحدث ذلك أثناء الثورة العرابية وهي الثورة التي قادها أحمد عرابي في فترة ١٨٧٩-١٨٨٢ ضد الخديوي توفيق والأوروبيون وسُميت آنذاك هوجة عرابي.

(٢) سنستخدم كثيراً كلمة «خديوي» ومن الأفضل أن نعرف القارئ بمعناها خاصةً أنها من المفردات الدارجة ولا يعرف معناها كثيرون.. والكلمة تُكتب بطريقتين «خديو» أو «خديوي» وتعرفها معاجم اللغة العربية بأنها: «لقب حاكم مصر تحت سيادة العثمانيين في بعض العهود الماضية» لكن المعنى الأقرب هو ملك البلاد.. أو الوالي الذي يحكم الولاية المصرية نائباً عن الخليفة العثماني.

الأعمال المالية يتولاها الأرمن والصيارفة وكانوا من الأقباط والكتبة من الأتراك وذلك لأن الرسائل كانت بالتركية..

وكان حُكام الأقاليم وأعوانهم يحتكرون حق التزام الأطيان الزراعية وحقوق امتيازات وسائل النقل فكانوا يمتلكون مراكب النقل الجماعي في النيل والتِرع بما فيها المعديات.

وكان حُكام الأقاليم يعيشون في قصور.. ولديهم خدم وعبيد وكانوا يتلقون الرشاوي لتعيين المشايخ في البنادر والقرى.. وكان العبيد الرقيق في قصورهم يعاملون برأفة ورقة.. وكانوا يحررونهم من الرِق.. ومنهم من امتلك الأبعاديات وتولى مناصب عليا بالدولة.. وكان يُطلق عليهم الأغوات المعاتيق.. وكانوا بلا عائلات ينتسبون إليها فكانوا يسمون «محمد أغا» أو «عبد الله أغا» وأصبحوا يشكلون مجتمع الصفوة الأرستقراطية ويشاركون فيه الأتراك.. وفي قصورهم وبيوتهم كانوا يقتنون العبيد والأسلحة ومنهم من كانوا حكاماً للأقاليم..

وكانوا الأعيان المصريين يتقاسمون معهم المنافع المتبادلة.. ومعظمهم كانوا عاطلين بلا عمل.. وكثيرون منهم كانوا يتقاضون معاشات من الدولة أو يحصلون على أموال من أطيان الالتزام.. وكانوا يعيشون عيشة مرفهة وسط أغلبية محدودة أو معدومة الدخل.

وكان التجار الأجانب ولاسيما اليونانيين والشوام واليهود يحتكرون المحاصيل ويمارسون التجارة بمصر.. ويشاركون الفلاحين في مواشيهم.. وكان مشايخ الناحية يعاونونهم على عقد مثل هذه الصفقات.. وضمان الفلاحين.. وكانت عقود المشاركة بين التجار والفلاحين تُوثق آنذاك في المحاكم الشرعية.. وكان الصيارفة في كل ناحية يعملون لحساب هؤلاء التجار لتأمين حقوقهم لدي الفلاحين.. ولهذا كان التجار يضمنون الصيارفة عند تعيينهم لدى السلطات.. خاصةً في المناطق التي كانوا يتعاملون فيها مع الفلاحين.. وكان التجار يُقرضون الفلاحين الأموال قبل جني المحاصيل مقابل احتكارهم لشراء

محاصيلهم.. وكان الفلاحون يسددون ديونهم من هذه المحاصيل.. وكان التجار ليس لهم حق ممارسة التجارة إلا بإذن من الحكومة للحصول على حق هذا الامتياز لمدة عام.. يُسدد عنه الأموال التي تقدرها السلطات وتدفع مقدماً.

لهذا كانت الدولة تحتكر التجارة بشرائها المحاصيل من الفلاحين أو بإعطاء الامتيازات للتُجار.. وكان مشايخ أي ناحية متعهدين بتوريد الغلال والحبوب كالسمن والزيوت والعسل والزبد لـ «شِون»[1] الحكومة لتصديرها أو إمداد القاهرة والإسكندرية بها أو توريدها للجيش المصري.. ولهذا كان الفلاحون سجناء قُراهم لا يغادرونها أو يسافرون إلا بإذن كتابي من الحكومة..

وكان الفلاحون يهربون من السُخرة في مشروعات «محمد علي» أو من الضرائب المجحفة أو من الجهادية.. وأحياناً كان من بين الفارين مشايخ القرى أنفسهم لعجزهم عن تسديد مديونية الحكومة..

«محمد علي» يهدد

ورغم وعود «محمد علي» إلا أن الآلاف كانوا يفرون للقرى المجاورة أو يلوذوا بالفرار والاختباء لدى العُربان.. وهذا ما جعل «محمد علي» ذات مرة يصدر مرسوماً جاء فيه بأن علي هؤلاء الهاربين العودة لقُراهم في موعد كان أقصاه شهر رمضان من عام ١٨٣٥ وإلا سيكون جزاؤهم الإعدام والصلب كلٌ علي باب داره أو دواره.. أما البدو فاستعان بهم في مطاردة آخر الشراكسة الفارين إلى مدينة دنقلة بالسودان وضم السودان لمصر واستمر ولاء رجال البادية القادمين من برقة للأسرة «محمد علي» وفي سنة ١٨٤٥ أصدر ديوان المالية لائحة الأنفار المتسحبين.. هددت فيها مشايخ البلاد بالقرى لتهاونهم وأمرت جهات الضبطية بضبطهم ومن يتقاعس عن ضبطهم سيعاقب عقاباً جسيماً.

❖❖❖

(١) جمع شونة.. وهي المكان المخصص لتخزين الغِلال.

DAYS Of MOHAMMED ALi

«محمد علي»

والإصلاح الاقتصادي.. والزراعي!!

أدرك «محمد علي» أن ثروة البلاد والمحافظة على كيانها المالي من أكبر دعائم الاستقلال.. لأن العمران هو أساس التقدم.. والثروة الأهلية قوام الاستقلال المالي.. ولا يتحقق استقلال ولا استقرار سياسي دون دعم واستقرار مالي واقتصادي.. لذلك كان أول ما هدف إليه «محمد علي» في سياسته إصلاح حالة البلاد الاقتصادية.. والاهتمام بدعم حركة العمران لتنمو الثروة القومية.. وتتوافر الأموال اللازمة للتسليح وإنشاء المصانع وغيرها..

وذات يوم قال «محمد علي» للقنصل الفرنسي في مصر آنذاك وكان يُدعى «ميمو» عندما أنذره بتدخل أوروبا للحد من طموحه وأحلامه التوسعية:

«تخطئ أوروبا باعتقادها أنى في حاجة إلى مال.. وأكبر دليل على عدم صحة هذا الاعتقاد أنني لا أبيع محصول القطن.. مع أنه من أهم موارد مصر.. وجنودي يقبضون مرتباتهم بانتظام.. وإني لا أعقد قرضاً ما في بلادٍ ما.. ولست مديناً لأحدٍ بشيء».

وقد تولى «محمد علي» بنفسه تنفيذ هذه السياسة القوية.. بعزيمة من حديد.. وبذل في ذلك جهوداً جبارة حتى خلف أعمالاً ومنشئات غير مسبوقة في تاريخ مصر الحديث يزدان بها تاريخه.. فشملت البلاد موجة من النهوض الزراعي كفلت لها الرخاء والأموال الطائلة التي أمكن بفضلها الاحتفاظ بقوات عسكرية كبيرة..

ويكفينا أن نلمح سريعاً لما نشأ في عهد «محمد علي» من ترع وجسور وقناطر أهمها القناطر الخيرية.. وتوسيع نطاق الزراعة خاصةً زراعة القطن الذي يعتبر عماد الثروة في مصر.. وغيرها من باقي الزراعات.. وكذلك إنشاء مصانع الغزل والنسج والجوخ والحرير والصوف والكتان والحبال والطرابيش.. ومعامل سبك

DAYS Of MOHAMMED ALi

الحديد والألواح النحاسية.. والسكر والصابون.. لندرك مدى ما كانت عليه سياسة مصر من سِعة.. وأفاق كانت أهدافها ترمى إلى جعل مصر دولةً صناعية زراعية عظيمة الثروة.. مزدهرة العمران.. تتمتع بجيش وقوة عسكرية متميزة.. يمكنها أن تحقق مبدأ الكفاية الذاتية لقواتها لتصون استقلالها..

المنهج العلمي الواقعي

وتكشف التنمية المتوازية في عدد من المجالات التي لا ترتبط مباشرة بالفنون والصناعات الحربية.. عن وعي واضح لدى محمد علي بالمنهج العلمي الواقعي في التعامل مع تشابك المجالات الحربية والاقتصادية والسياسية.. فلا استقلال بدون اعتماد على النفس في فنون الري والصناعة والتعليم.. وهذا يفسر الاهتمام البالغ بإنشاء البنية الأساسية في مجال الزراعة.. مثل:

- إعادة تشغيل الترع المطمورة..
- حفر ترعاً أخرى جديدة في شتى أنحاء مصر..
- إنشاء الجسور على شاطئ النيل من جبل السلسلة[1] جنوباً حتى البحر الأبيض المتوسط شمالاً لمنع فيضان المياه على ضفتي النيل..
- إنشاء جسور أخرى على أفرع النيل..
- إنشاء قناطر عديدة على التِرع لضبط مستويات المياه تيسيراً للانتفاع بالري.

إنشاء القناطر الخيرية

وكانت أراضي الوجه البحري تُروى بطريق الحياض كري الوجه القبلي فلا يُزرع فيها إلا المحاصيل الشتوية.. فتم إنشاء القناطر الخيرية لضمان توفير المياه في معظم السنة.. وعهد «محمد علي» بدراسة هذا المشروع قبل تنفيذه إلى جماعة من كبار المهندسين منهم «لينان دي بلفون» وبدأ تنفيذه سنة ١٨٣٤ لكن

(١) موجود بأسوان بالقرب من الحدود المصرية السودانية.

DAYS Of MOHAMMED ALi

مهندسا فرنسيا آخر هو «موجيل» أعد تصميماً مختلفاً تحمس له أكثر محمد علي وبدأ التنفيذ بمساعدة مهندسين مصريين تخرجا من البعثات العلمية..

وتعتبر هذه القناطر التي تعمل في شمال القاهرة حتى الآن من أولى القناطر الكبرى التي تقام على نهر واسع في العالم.

تغيير السياسة الزراعية

وكانت نتيجة الإصلاحات الزراعية واسعة النطاق تغيير عدد من الحاصلات.. فبعد أن كانت أهم الحاصلات في مصر تتمثل: القمح والشعير والفول والعدس والحمص والذرة والترمس والبرسيم وقصب السكر والقنب والكتان والخضر والفواكه.. وقليل من القطن.. تم التوسع بغرس شجر التوت لتربية «دود القز»[1].. وبعد أن كان القطن المصري يُزرع من أصناف رديئة.. تمت زراعة القطن طويل التيلة.. تبعاً لنصيحة جوميل الذي استقدمه «محمد علي» لتنظيم مصانع النسيج.. وأقبلت على طلب القطن المصري مصانع النسيج في فرنسا وإنجلترا.. وأصبح أساس الثروة الزراعية في مصر.

❖❖❖

(١) لإنتاج الحرير.

DAYS Of MOHAMMED ALi